

السفارات المتبادلة بين السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ / 1265-1277م) وبين مغول القفجاق (القبيلة الذهبية)

فايزة عبد الرحمن حجازي*

ملخص

يتناول هذا البحث السفارات المتبادلة بين السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ / 1260-1277م)، وبين مغول القفجاق (القبيلة الذهبية)، حيث قامت تلك العلاقات على أسباب دينية بسبب اعتناق ملوك مغول القفجاق للدين الإسلامي، مما دعا إلى قيام علاقات مودّة وصداقة بينهم وبين دولة المماليك، وقد أيد الطرفان مثل هذه العلاقات، وتبادلوا السفارات المحمّلة بالهدايا.

كما كان هناك أسباب سياسية لهذا التقارب، وهو العداء المشترك لمغول فارس من قبل المماليك ومغول القفجاق، الأمر الذي دعاهم للتقارب والتفاهم على ضرب مغول فارس وهزيمتهم، خاصة أن خانات مغول فارس لم يدخلوا في الإسلام، وباتوا على كفرهم في تلك الفترة.

الكلمات الدالة: السفارات المتبادلة، الظاهر بيبرس، مغول القفجاق، القبيلة الذهبية.

المقدمة

لننتهي من كل ما سلف إلى توضيح فكرة البحث السفارات المتبادلة بين السلطان الظاهر بيبرس ومغول القفجاق.

مغول القفجاق (القبيلة الذهبية)

التاريخ إرث عظيم، والمتأمل في تقاطعاته يلحّ نشوء مملكة (القفجاق)، وذلك عندما قسم جنكيز خان (ت624هـ-1227م) إمبراطوريته في حياته بين أولاده الأربعة. حيث ينقل القلقشندي (ت821هـ/1814م) السرّد على لسان الشيخ شمس الدين الأصفهاني (ت749هـ/1349م) "أن جنكيز خان أولّد أربعة أولاد، وهم: جوجي: وهو أكبرهم، وكداي، وطولي، وأوكداي. فقتل جوجي في حياة أبيه، وخلف أولاداً. قال ابن الحكيم الطياري: وهم باتو، ويُقال: باطو، وأورده، وبركة، وتولي، وحمتي. قال الشيخ شمس الدين المذكور: والمشهور باتو وبركة" (القلقشندي، 1987).

وإن، فإن محصلة تقسيم جنكيز خان (ت624هـ-1227م) لإمبراطوريته أفصحت عن نصيب أكبر أبنائه (جوجي)، حيث عهدت إليه البلاد الواقعة بين نهر إيل والسواحل الجنوبية لبحر قروين، وكان اسم تلك البلاد (القفجاق)، ويُطلق عليها أيضاً اسم (القبيلة الذهبية) نسبة إلى اللون الذهبي الذي امتازت به خيامهم. وكان أغلب سكانها من الترك والتركماني (القلقشندي، 1987، بارتولد، 1982).

ومهما يكن الأمر، فإن الابن الأكبر (جوجي)، صاحب تلك البلاد، توفي في حياة أبيه جنكيز خان، فانقسمت البلاد بين

التاريخ، بعامّة، نتاج سلسلة من التفاعلات والعمليات للأصقاع والأزمان السالفة. وعملياً، فإن الأحداث المنصوّرة عبر تلك الأزمان جديرة بالبحث والاهتمام، لذلك حق لنا أن نعاود الرجوع إلى تاريخ الدولة المملوكية التي استطاعت أن تمتدّ بنفوذها من بلاد مصر إلى بلاد الشام وفي الشمال الشرقي، وحتى الحجاز واليمن في الجنوب والجنوب الغربي، فحكمت تلك الدولة أكثر من قرنين ونصف من عمر العرب والمسلمين في مرحلة يسودها الاضطراب وتملؤها الأحداث الجسيمة.

وعموماً، فإن البحث معني برصد الملاحظات والأحداث التي تظهر نشوء السفارات المتبادلة بين السلطان الظاهر بيبرس (658-676هـ/1260-1277م)، وبين مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) من طرف مباشر أو غير مباشر. وبأمل أن تُثمر الدراسة هذه عن عرض إيجابي ونتائج وافية، وقد وجّه رصده عبر سبل ثلاثة آتية، أولها: مغول القفجاق (القبيلة الذهبية)، وثانيها: سلطنة بيبرس، وثالثها: العلاقات القائمة بين السلطان الظاهر بيبرس ومغول القفجاق (القبيلة الذهبية)،

* قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة اليرموك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2016/02/14، وتاريخ قبوله 2016/05/21.

أبنائه. وكان أكبر هؤلاء الأولاد (أورده) الذي استُخلف على سائر المملكة في بادئ الأمر، وتاني الأولاد (باتو) الذي فضّلته قبائل القسم الغربي من المملكة الذهبية، وأعلنه ملكاً عليها. وقد اعترف جنكيز خان -بنفسه- بهذا الاستقلال قبل وفاته، وبهذا تقلص سلطان (أورده) الأخ الأكبر إلى القسم الشرقي فقط، وعرف باسم القفجاق الشرقي أو القبيلة البيضاء، كما عرفت بلاد (باتو) باسم القفجاق الغربي أو القبيلة الزرقاء (الأمين، 1976).

1. أما باتو فقد كان مركز مملكته الجهات الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفولجا، وقاعدة المملكة صراي (صراي): وقيل فيها: (سراي)، وهي مدينة كبيرة، ذات أسواق وحمامات ووجوه بر، مقصودة بالإجلاب، ويغذها عن خوارزم نحو شهر ونصف. يُنظر: القلقشندي، 1987). وهو الذي غزا أوروبا فتوغل في روسيا وبولندا والمجر وذلماشيا ما بين (635-640هـ/1237-1242م)، فطغت شهرته على الجميع حتى اعتبرته سائر بلاد التتار في جميع بلاد القفجاق شرقاً وغرباً من أحق أبناء جوجي خان بالحكم، وذلك بالرغم من وجود أوردا على قيد الحياة في بلاد القفجاق الشرقي.

وهكذا، وجب على الظاهر بيبرس أن يرسخ شؤون بلاده الداخلية، ويتطلع إلى زعامات خارجية ونفوذ أعظم شأن، فتجدّه -أي الظاهر بيبرس- أفاد من الوقائع والأحداث التي زامنت تسلّمه الحكم، الأمر الذي حدا به إلى أن يكون سديداً في آرائه، رشيداً في مقترحاته، حريصاً على تدعيم الدولة المملوكية على المستويات الداخلية والخارجية عبر محاور سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية وغيرها.

أصبح باتو بعد ذلك يُلقب بـ (خان القبيلة الذهبية)، وهذا اللقب يشمل جميع القفجاق شرقاً وغرباً. وتوفي باتو خان سنة (645هـ-1256م)، وتولى الحكم بعده مباشرة ولده طرطق خان، ولكنه توفي في نفس السنة. ثم ملك المملكة أخوه بركة بن جوجي (645-665هـ/1256-1266م) وهو الذي تُنسب هذه المملكة إليه، فيقال فيها: (بيت بركة)، بمعنى هذه مملكة بيت بركة، كما يُقال في إيران: هي مملكة بيت هولوكو (القلقشندي، 1987م).

العلاقات القائمة بين المماليك (الظاهر بيبرس) والمغول (القفجاق (القبيلة الذهبية))

كان لهزيمة المغول في عين جالوت على أيدي المماليك أن اتخذت القوى المغولية الفارسية خطوات شاسعاً في سبيل تحقيق أهدافهم في السيطرة على بلاد الشام ومصر من ناحية، والتأثر من هزيمتها في عين جالوت من ناحية أخرى. الأمر الذي دعاهم لاستغلال أي ظرف داخلي في الدولة المملوكية، فعمل المغول في سبيل مواجهة ناجحة مع المماليك إلى محاولات تحالف مع القوى الصليبية التي كانت تعاني من وضعها السيئ في بلاد الشام مما دعا أيضاً ملوك الغرب إلى محاولة تشكيل حلف بينهم وبين مغول فارس، وضرب عدوهم المشترك. وبناءً على ذلك قامت الدولة المملوكية باتخاذ إجراءات وسياسات احترازية تكفل لها مواجهة ناجحة ضد الخطر المغولي، وهي في الوقت نفسه تصب في خدمة أهداف الدولة المملوكية، وتدعم أركانها وهذا ما دعا الظاهر بيبرس عن حليف له فعل على مصافاة ومصادقة بركة خان (جبران، 2011م، موير (Seton, 1996, Morgan 1988, Irwin 1986, 1995).

سُلْطَنَةُ الظَّاهِرِ بَيْبَرِسِ 658هـ/676هـ /1204م-1277م
فَدَّرَ لِلْمَلِكِ الْمُظْفَرِ السُّلْطَانَ الظَّاهِرِ بَيْبَرِسِ مُبَايَعَةً طَارِئَةً وَقِيَادَةً مُجْمَعاً عَلَيْهَا لِمِصْرَ وَبِلَادِ الشَّامِ بَعْدَ اغْتِيَالِهِ السُّلْطَانَ فُطْرَ (ت658هـ/1260م) أُنْتَاءَ عَوْدَتِهِ مِنَ الشَّامِ وَانْتِصَرَاهُ عَلَى الْمَغُولِ فِي مَوْقِعَةِ عَيْنِ جَالُوتَ، فَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّهِ، وَاسْتَخْلَفَ النَّاسَ عَلَى طَبَقَاتِهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى الْأَقْطَارِ بِذَلِكَ، وَرَتَّبَ الْوُظَائِفَ، وَوَلَّى الْأُمْرَاءَ (ابن خلدون، 2000. الزيدي، 2006م) وَعَلَى أَثَرِ تِلْكَ الْمُبَايَعَةِ فَقَدَّ شَرَعَ الظَّاهِرُ بَيْبَرِسُ يَسْتَهْوِي الْقُلُوبَ وَيَسْتَمِيلُ الْأَهْوَاءَ فِي الْمَمْلَكَةِ الْجَدِيدَةِ عَلَيْهِ؛ فَانْتَظَمَ لِنَفْسِهِ خُطَّةً مَكِينَةً حَكِيمَةً فِي إِدَارَةِ شُؤُونِ الْبِلَادِ.

سعى الظاهر بيبرس إلى إنهاء جميع اشتباكاتِه الحربية من أجل التفرغ لمقارعة المغول، فقد هتمم بجميع شؤون بلاد الشام الحدودية والعسكرية، فحصنها وأزرع شبيها وشبانها استعداداً لغزوات المغول القادمة. وبالإمكان أن يُستنتج هذا الفهم بسهولة من قول ابن كثير نفسه (ت774هـ): "وقد كان هولوكو خان (ت663هـ/1265م) لما بلغه ما جرى على جيشه من

وكما جرت العادة، وعلى المستوى السياسي، فإن الحاكم الجديد لأي دولة يبدأ في تثبيت حكمه وتدعيمه والتقرب من عامة الناس قسداً؛ لفرص الهيمنة على الشعوب (جبران،

اعتناقهم الإسلام، وما في ذلك من رغبة شديدة في توثيق المودة والصداقة بين الطرفين. ومن بعد فقد بات العدو واحداً مشتركاً بينهما، ومما يُذكر في هذا الصدد قول الباحثة الحجي: "إذ إن اعتناق هذا الفرع من المغول للديانة الإسلامية أوقعهم في عداة شديدة مع مغول فارس والعراق، الأمر الذي ترتب عليه نوع من التقارب والتحالف بين سلطنة المماليك (مصر والشام) ومغول القفجاق ضد عدو مشتركاً ممثلاً في مغول فارس (الحجي، 1981).

ومن الشواهد التاريخية على الجانب الديني كذلك ما جاء في ترجمة بركة خان (645-665هـ/1256-1266م) في تاريخ دمشق، حيث قيل: "كان بركة يميل إلى المسلمين كثيراً، ويعظم أهل العلم، ويعتقد في الصلحاء من المسلمين، ويبركهم بمشايخهم، ويرجع إلى أقوالهم، وكلمتهم عنده مسموعة، وحرمتهم في مملكه وافرة. وكان أعظم أسباب وقوع الحرب بينه وبين هولاء كون هولاء قتل الخليفة المستنصر بالله... وكان جماعة من أهل الحجاز يتوجهون إليه، فيبرهم ويعطيهم المال الكثير، ويبالغ في احترامهم والإحسان إليهم. وكان قد أسلم هو وكثير من جنده. والمساجد الخيام المحمولة معه، ولها الأئمة والمؤذنون، ومتى نزل في مكان ضررها وأقيمت فيها الصلوات الخمس. وكان شجاعاً جواداً حازماً عادلاً، حسن السيرة في رعاياه، يكره الإكثار من سفك الدماء، والإفراط في خراب البلاد، وعنده رافة وحلم وصفح (اليونيني، 2007م) ويستأنس بالجانب الديني أيضاً عبر السرد التاريخي سنة (660هـ/1262م)، حيث وصلت جماعة من جند القبيلة الذهبية، وبلغ عددها المائتين، وكانت تقاتل مع قوات هولاء قبل وقوع الخلاف بينهما، فلما اختلفاً، واشتد العداة بينهما، أرسل بركة خان إلى عساكره يأمرهم بالمسير إليه وترك هولاء، فإن لم يستطيعوا ذلك فليهم بدخول بلاد الإسلام، فساروا من الشام إلى مصر، فأكرمهم السلطان الظاهر بيبرس، واحتفى بهم، وأقنعهم بصحة دين الإسلام حتى اعتنقوه، وأغدق عليهم العطايا والهبات والإقطاعات.

2. وبعد ذلك جهز السلطان وفداً إلى بركة خان يضم الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كش تك، وكتب معها رسالة إلى بركة خان تتضمن "أحوال الإسلام، ومبايعة الخليفة (الخليفة العباسي المستنصر بالله أبي القاسم احمد من الإمام الظاهر بويغ له بالخلافة بالقاهرة، 659هـ/1266م اليونيني، ج2، دت)، واستمالة الملك بركة وحثه على الجهاد، ووصف عساكر المسلمين وكثرتهم وعدة أجناسهم، وما فيها من خيل وتركان وعشائر وأكراد، ومن وافقها وهادها وهادتها، وأنها كلها سامعة مطيعة لإشارته، إلى غير ذلك من الإغراء

المسلمين بعين جالوت أرسل جماعة من جيشه الذين معه كثيرين، ليستعيدوا الشام من أيدي المسلمين، فحبل بينهم وبين ما يستهون، فرجعوا إليه خائبين خاسرين، وذلك أنه نهض إليهم الهزبر الكاسر والسيف البائر، الملك الظاهر، فقدم دمشق وأرسل العساكر في كل وجه لحفظ النعمور والمعاقل بالأسلحة، فلم يقدر التتار على الدنو إليه، ووجدوا الدولة قد تغيرت، والسواعد قد شمرت، وعناية الله بالشام وأهله قد حصلت، ورحمته بهم قد نزلت، فعند ذلك نصت شياطينهم على أعقابهم، وكروا راجعين القهقري (ابن كثير، 1988).

- أثمرت سياسات الظاهر بيبرس على المستويين: الداخلي والخارجي، وبخاصة علاقته مع مغول القفجاق (القبيلة الذهبية) وبيزنطة إلى إحباط مكر ومحاولات مغول فارس سواء كان ذلك في عهد هولاء خان أو عهد خليفته أباقا خان.

- حنكة الظاهر بيبرس وفطنته السياسية والعسكرية في التعامل مع الظروف المحيطة به، حيث كان حريصاً على عدم مواجهة مقاومتين في آن واحد، الأمر الذي أفضى به إلى أن يلجأ إلى سياسة المهادنة مع طرف من أجل التفرغ لمواجهة طرف آخر. فتراه لم يغفل في مقاومة الأخطار المغولية والصليبية إزاء التحالفات والعلاقات التي أنشأها مع القوى الخارجية المؤثرة على ساحات الحرب وميادين الصراع، وشمل ذلك المدن الإيطالية التجارية وبيزنطة ومغول القفجاق (القبيلة الذهبية) (موير، 1995، 1988، Morgan).

ولعل أهم أسباب التقارب وقيام العلاقات الودية بين الطرفين تنبثق عن عدة أمور، نذكر منها: أولاً: الجانب الديني، إسلام ملوك القفجاق (القبيلة الذهبية)، وكان أول من أسلم منهم بركة بن طوجي بن جنكيز خان. ويستأنس على ذلك بقول القلقشندي (ت821هـ): "وكان إسلامه قبل تملكه حين أرسله أخوه باطو خان لإجلال منكو خان على كرسي جده جنكيز خان، فأجلسه وعاد، فمّر في طريقه على البخارزي شيخ الطريقة، فأسلم على يديه وحسن إسلامه، ولم يملك بعد أخيه باطو خان إلا وهو مسلم، وتلاه من تلاه من ملوكهم بهذه المملكة في الإسلام حتى كان أربك خان منهم، فأخلص في الإسلام غاية الإخلاص، وتظاهر بالديانة والنمسك بالشرعية، وحافظ على الصلاة وداوم على الصيام" (ابن كثير، 1988، القلقشندي 1987، عاشور، دت).

ومن هنا، فإن المحصلة الطبيعية في ذلك تتلخص في صدق إسلام (بركة خان)، إذ كان لإسلامه أثر كبير في ذلك التقارب بين سلطنة المماليك، ودولة مغول القفجاق (القبيلة الذهبية). وإزاء ما سبق، فمدق النظر في شأن القبيلة الذهبية يرى حرص ملوكها على توطيد علاقاتهم مع دولة المماليك بعد

الانتصارات التي حققها بيبرس على أعدائه كانت المصاهرة الخارجية التي عقدها مع مغول القفجاق، فأمن جانبهم، ثم ضمن ووقوفهم إلى جانبه في قتاله ضد مغول فارس ثانية، فتمكّن بفضل هذه السياسة من إلحاق الهزيمة بالعدو الذي طالما شكّل خطراً كبيراً على المماليك" (ضاحي، 2007م)

- رابعاً: الجانب الاجتماعي، وأنيس هذا الجانب ما كتبه السلطان الظاهر بيبرس إلى الملك منكوتر القائم مقام الملك بركة بالنعزية بسلفه، والإغراء بولد هولكو (المقريزي، 1997م). وقد كان لهذا التوجه أثر كبير انعكس على طبيعة العلاقة بين دولة المماليك ودولة القفجاق، حيث باتت الروريا واضحة وكاشفة عن حرص ونية الظاهر بيبرس في استمرار الروابط الوثيقة التي تربطه بدولة مغول القفجاق.

- خامساً: الجانب السياسي، وقد أسلفنا الذكر أن السلطان الظاهر بيبرس أثناء توليه الحكم واجه في بداية سلطنته مشكلة مغول فارس التي استمرت منذ موقعة عين جالوت سنة (658هـ)، وارتبط خطرهم مع الصليبيين والتحالف بينهما ضد المماليك في مصر والشام، لذا قرّر الظاهر بيبرس أن يتحالف مع مغول القفجاق، وأرسل يدعو قائدهم بركة خان (ت566هـ/1263م) لقتال هولكو، وأكرم السلطان بيبرس وفود القفجاق القادمين إليه، وبعض الفارين من هولكو (ت663هـ/1265م) إلى الشام" (ضاحي، 2007م، الزيدي، م، 2006م).

وبهذا يبدو أن الظاهر بيبرس كان قلقاً من المغول الذين كانت لهم دولة تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندي رئيسها أبغا، فدعاه ذلك إلى مصافاة صاحب القبجاق عدو أبغا، وإلى مصادقة الإمبراطور البيزنطي (إمبراطور بيزنطة: هو الإمبراطور أندونيقي الثاني 1259هـ-1282م). الذي كان قد أخذ يقيق من أضرار الحرب الصليبية السادسة ومن المصائب العظيمة التي أنزلتها البابوية بالقسطنطينية. وقد استحكمت بين الدولتين عرى المصافاة والمصادقة، حتى أن الإمبراطور بنى مسجداً للمسلمين في حاضرة ملكه، وحصل من السلطان بيبرس على تعيين بطريك من الطائفة الملكانية لمن يعنقون هذا المذهب في دولته. ولم تقف مساعي بيبرس عند هذا الحد، بل أرسل إلى إسبانيا ونابلي وإلى سلاجقة آسيا الصغرى، وفي الواقع إلى أي ناحية كان يرى أنه يجد فيها سنداً ينصره على أعدائه المغول الأبداء" (موير، 1995م). فضلاً عن محاولات ملوك الغرب لتشكيل حلف بينهم وبين مغول فارس كون المماليك العدو المشترك لهم". (Setton, 1969, Boyel, 1966. Irwin, 1986) وعلى أي حال، فالإرث التاريخي مليء بالأحداث التي تكشف لنا عن طبيعة العلاقة بين دولة

بقتال هولكو والتفليل من شأنه ومكانته وتبجح فعله في بلاد المسلمين (ابن كثير، 1988، المقريزي، 1997م)

وشهدت سنة (661هـ/1263م) وصول رسولين إلى القاهرة، وكان قد أوفدهما الملك بركة خان، أحدهما جلال الدين قاضي دوقات والشيخ علي التركماني، وكان وصولهما إلى الإسكندرية بطريق البحر بعد أن مروا ببلاد بيزنطة، حيث قدمت رسل بركة خان إلى الظاهر رسالة يقول فيها: "قد علمت محبتي للإسلام، وعلمت ما فعل هولكو بالمسلمين، فاركب أنت من ناحية حتى آتية أنا من ناحية، حتى نصلطمه أو نخرجه من البلاد وأعطيك ما كان بيده من البلاد" فاستصوب الظاهر هذا الرأي وشكره وخلص على رسله وأكرمه (ابن كثير، 1988، المقريزي، 1997، رمزي، 1908، سرور، 1960).

- ثانياً: الجانب الاقتصادي، ويتضح هذا الجانب إذا أمعن المرء النظر في المدونات التاريخية، حيث برز الشقاق والخلاف بين دولتي مغول فارس في الشرق ومغول القفجاق في الشمال، نتيجة تقاسم البلاد المفتوحة. وما حدث سنة (660هـ/1267م) كفيلاً بأن يؤكد هذا الطرح، ففي تلك السنة أرسل السلطان بركة خان إلى ابن عمه هولكو خان يطلب منه نصيباً مما فتحه من البلاد وأخذه من الأموال والأسرار، على ما جرت عليه عادة ملوكهم، فقتل رسله، واشتد غضب بركة خان، وكتب الظاهر ليتفقا على هولكو خان (ابن كثير، 1988، حسن، 2010).

- ثالثاً: جانب المصاهرة، ومما يعزز هذا الجانب ما يذكره المقريزي (ت845هـ) من زواج الظاهر بيبرس من ابنة حسام الدين بركة خان بن دولة خان التتري (المقريزي، 1997م، عاشور، د.ت)

وفي ضوء هذا الأثر، يمكن فهم ما وصلت إليه العلاقات المملوكية - القفجاقية من تقارب ومودة في تلك الحقبة، حيث وصلت تلك الروابط بين الطرفين إلى مستوى عالٍ من التقارب والمودة والمصاهرة، وتبادل بعثات دبلوماسية، وعقد اتفاقيات بين الطرفين. وكانت الفترة النشطة لهذه العلاقات في عهد السلطان الظاهر بيبرس ثم سلاطين أسرة قلاون وخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاون" (الحجي، 1981م)

وخلاصة ما سبق عرضه، أمكن القول: إن العلاقات الخارجية التي أقدم عليها الظاهر بيبرس مع مغول القفجاق أوصلته إلى نتيجتين، الأولى: الأمان الذي اكتسبه تجاه القبيلة الذهبية، وهي عيناها دعامة للنتيجة الأخرى: المتمثلة بوقوف مغول القفجاق إلى جانب المماليك ضد مغول فارس. ويعضد هذا التوجه قول أحد المحدثين: "ونلاحظ هنا أن أحد أسباب

مِنْ كَثْرَةِ الْعَسَاكِرِ وَحُسْنِ زِيهِمْ وَاهْتِمَامِ السُّلْطَانِ وَبَهْجَةِ الْخِيُولِ وَجَلَالَةِ الْفُرْسَانِ مَا بَهَرَ عُقُولَهُمْ، وَوَقَفُوا بِجَانِبِ السُّلْطَانِ يُشَاهِدُونَ حَرَكَاتِ الْعَسَاكِرِ وَإِصَابَةَ رَمْيِهَا، وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ أَيَّامًا" (المقريزي، 1997م)

وَبَعْدَ وِفَاةِ هَوْلَاكَو لَمْ تَهْدَأِ الْأَحْوَالُ بَيْنَ الْمَمْلَكَتَيْنِ؛ إِذْ قَامَتِ الْحَرْبُ عَامَ 665هـ/ 1266م. وَبَيْنَمَا كَانَ بَرَكَةُ خَانَ يُحَاوِلُ الْهُجُومَ عَلَى جَيْشِ مَغُولِ فَارِسٍ أَدْرَكَتُهُ الْوِفَاةُ فِي الطَّرِيقِ عَامَ 665هـ/ 1266م، فَعَادَ جَيْشُ بَرَكَةَ خَانَ إِلَى بِلَادِهِ، وَتَوَلَّى الْحُكْمَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُ أَخِيهِ مَنكُوتَمَرِ بْنِ طَغَانَ بْنِ بَاتُو بْنِ جُوجِي بْنِ جَنكِيَزِ خَانَ (اليونيني، 2007م، القلقشندي، 1987).

وَسَارَ مَنكُوتَمَرُ عَلَى نَفْسِ السِّيَاسَةِ (ابن كثير، 1980. عاشور، د.ت.)، وَاتَّفَقَ مَعَ الْمَمَالِكِ عَلَى مُنَاوَأَةِ بَيْتِ هَوْلَاكَو وَالْقَضَاءِ عَلَيْهِ، فَفِي سَنَةِ (665هـ/ 1267م) قَدِمَ بِقُوَّاتِهِ لِمُحَارَبَةِ أَبْغَابِنِ هَوْلَاكَو (663-680هـ/ 1265-1282م)، فَجَمَعَ عَسَاكِرَهُ، وَقَدَّمَ عَلَيْهَا مَقْدَمًا، وَسَيَّرَهَا إِلَى بِلَادِ أَبْغَا، إِلَّا أَنَّ عَسَاكِرَ أَبْغَا كَسَرَتْ عَسَاكِرَهُ، وَهَرَبَ مَنكُوتَمَرُ إِلَى بِلَادِهِ، وَرَجَعَ أَبْغَا بَعْدَ أَنْ كَسَبَ كَسْبًا عَظِيمًا (اليونيني، 2007م).

وَفِي سَنَةِ (670هـ/ 1271م) وَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ رُسُلٌ مِنْ بَيْتِ بَرَكَةَ مِنْ عِنْدِ مَنكُوتَمَرِ فِي الْبَحْرِ، وَكَانُوا لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بِلَادِ الْأَشْكَرِيِّ صَادَقَهُمْ مَرْكَبٌ مِنَ الْبَيْسَانِيِّينَ، فَأَخَذَهُمْ وَدَخَلُوا بِهِمْ عَكَا، فَفَتَحَ عَلَيْهِمْ مَا فَعَلُوهُ، ثُمَّ جَهَّزَهُمْ إِلَى دِمَشْقَ، وَلَمْ يُعِدِ الْبَيْسَانِيُّونَ مَا أَخَذُوا مِنْهُمْ، وَكَانَ مَعَهُمْ هَدِيَّةٌ. فَلَمَّا كَانَ اجْتِمَاعُهُمْ بِالْمَلِكِ الظَّاهِرِ أَخْبَرُوهُ مَا حَدَّثَ مَعَهُمْ، فَمَا كَانَ مِنْهُ إِلَّا أَنْ بَعَثَ إِلَى الإسْكَندَرِيَّةِ وَمَنَعَ مَنْ فِيهَا مِنَ التُّجَّارِ الْبَيْسَانِيِّينَ مِنَ السَّفَرِ حَتَّى يُعَوِّضُوا مَا أَخَذَ أَصْحَابُهُمْ. وَكَانَ مَضمُونُ رِسَالَتِهِمْ أَنَّهُمْ أَحْضَرُوا كِتَابًا لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ بِجَمِيعِ مَا كَانَ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي اسْتَوْلَى عَلَيْهَا هَوْلَاكَو، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُنْجِدَهُمْ وَيُعِينَهُمْ عَلَى اسْتِئْصَالِ شَاقَةِ بَيْتِ هَوْلَاكَو (اليونيني، 2007م. عاشور، د.ت.)

وَفِي سَنَةِ (671هـ/ 1272م) "سَفَرَ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ رُسُلًا مَنكُوتَمَرِ ابْنَ أَخِي بَرَكَةَ، وَبَعَثَ مَعَهُمْ هَدِيَّةً سَنِيَّةً مِنْ حَوَائِصِ، وَسُيُوفٍ مُحَلَّاةٍ، وَجَوَاهِرٍ، وَثِيَابًا مُنَوَّعَةً، وَصَحْبَتُهُمْ بَدْرَ الدِّينِ عَزِيزِ الْكُرْدِيِّ وَغَيْرِهِ" (اليونيني، 2007م).

وَكَانَ آخِرُ ذِكْرٍ لِسَفَارَاتِ مَغُولِ الْفُجْجَاقِ فِي الْمَصَادِرِ أَنَّهُ فِي سَنَةِ (676هـ/ 1275م) وَصَلَ الْفَاهِرَةُ خَمْسَةَ وَعِشْرُونَ رَسُولًا، وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِمْ رُسُلٌ مَنكُوتَمَرِ، وَقَدْ تَلَقَّاهُمُ الْمَلِكُ الظَّاهِرُ عَلَى بَرَكَةِ الْجُبِّ، وَرَجَلُوا، وَقَبِلُوا الْأَرْضَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ" (اليونيني، 2007م). وَشَهِدَ الْعَامُ نَفْسَهُ وِفَاةَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ بَيْرِسِ فِي مِصْرَ (اليونيني، 2007).

وَخِلاصَةُ الْقَوْلِ وَخَاتَمَةُ الْبَحْثِ، وَتَأْسِيسًا عَلَى أَدْوَارِ

الْمَمَالِكِ وَمَغُولِ الْفُجْجَاقِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ أَوَاصِرٍ مَحَبَّةٍ وَمُصَافَاةٍ وَمُصَادَقَةٍ خِلَالَ سِنِينَ مَضَتْ. إِذْ يَجِدُ الْبَاثِحُ وَفْرَةً مِنَ الزُّوَايَاتِ الَّتِي تُؤْنِسُ ذَلِكَ مِنْ طَرَفٍ مُبَاشِرٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرٍ. 3. وَمِنْ تِلْكَ الشُّوَاهِدِ التَّارِيخِيَّةِ مَا جَاءَ سَنَةَ (661هـ/ 1263م) فِي عَهْدِ بَرَكَةَ خَانَ، حَيْثُ حَضَرَ رُسُلُ بَرَكَةَ إِلَى قَلْعَةِ الْجَبَلِ، "فَأَلْبَسَهُمُ الْخَلِيفَةُ بِتَقْوِيصِ الْوُكَالَةِ لِالْتِمَاكِ، وَحَمَلَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمَلَابِسِ مَا يَلِيقُ بِمِثْلِهِمْ. وَجَهَّزَ السُّلْطَانُ هَدِيَّةً جَلِيلَةً لِلْمَلِكِ بَرَكَةَ، وَكَتَبَ جَوَابَ كِتَابِهِ فِي قَطْعِ النِّصْفِ فِي سَبْعِينَ وَرَقَةً بَعْدَانِيَّةً لِكَانَ الْوَرَقِ الْبَعْدَادِيِّ أَجُودِ أَنْوَاعِ الْوَرَقِ وَأَكْبَرَ سَعَةً وَكَانَ مَحْفُوظًا لِكِتَابَةِ الْمَصَاحِفِ وَلَا يَسْتَعْمَلُ فِيهَا عَدَا ذَلِكَ سِوَى لِمَكَاتِبِ الْمُلُوكِ الْكِبَارِ. (المقريزي، 1997) بِحَظِّ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ، وَهُوَ الَّذِي قَرَأَهُ عَلَى السُّلْطَانِ بِحُضُورِ الْأَمْرَاءِ. وَسَلَّمَتِ الْهَدِيَّةُ لِلْأَمِيرِ فَارِسِ الدِّينِ أَقُوشِ الْمُسْعُودِيِّ، وَالشَّرِيفِ عِمَادِ الدِّينِ الْهَاشِمِيِّ، فَسَارَا فِي يَدِهِ طَرِيدَةً فِيهَا عِدَّةُ رِمَاةٍ وَجَرَّخِيَّةٍ (الجرخية)، جَمَعَ جَرَّخِي أَيِ الْجَرَّخِ. (المقريزي، 1997) وَزُرَاقِينَ (زُرَاقِينَ، جَمَعَ زُرَاقُو مَعْنَاهَا رَامِي النِّفْطِ مِنَ الزُّرَاقَةِ، (المقريزي، 1997)، وَأَشْحَنَتِ الْأُرُودَةُ لِمُدَّةِ سَنَةٍ. وَخَرَجَتِ النَّجَابَةُ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ بِأَنْ يُدْعَى لِلْمَلِكِ بَرَكَةَ، وَأَمَرَ الْخُطْبَاءُ أَنْ يَدْعُوا لَهُ عَلَى الْمَنَابِرِ بِمَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ وَالْقُدْسِ وَبِمِصْرَ وَالْفَاهِرَةَ بَعْدَ الدُّعَاءِ لِلْسُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ (ابن كثير، 1988م. المقريزي، 1997م. عاشور، د.ت.).

وَفِي الْعَامِ نَفْسِهِ، قُرِئَ مَكْتُوبٌ فِي جَامِعِ مِصْرَ بِإِطَالِ مَا قُرِّرَ عَلَى وِلَايَةِ مِصْرَ مِنَ الرُّسُومِ... وَوَرَدَ الْخَبَرُ بِأَنَّ الْأَشْكَرِيَّ عَوَّقَ الرُّسُلَ إِلَى الْمَلِكِ بَرَكَةَ بِالْهَدِيَّةِ عَنِ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ، حَتَّى هَلَكَ أَكْثَرُ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْحَيَوَانِ، فَأَحْضَرَ السُّلْطَانُ الْبَطَارِكَةَ وَالْأَسَاقِفَةَ، وَسَأَلَهُمْ عَمَّنْ خَالَفَ الْإِيمَانَ وَمَا كَتَبَ بِهِ الْأَشْكَرِيَّ، فَأَجَابُوا بِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُحْرَمَ مِنْ دِينِهِ، فَأَخَذَ السُّلْطَانُ حُطُوطَهُمْ بِذَلِكَ، وَأَخْرَجَ لَهُمْ حَبِينًا نَسَخَ إِيْمَانَ الْأَشْكَرِيَّ، وَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ نَكَثَ بِإِمْسَاكِ رُسُلِي، وَمَالَ إِلَى جِهَةِ هَوْلَاكَو. ثُمَّ جَهَّزَ إِلَيْهِ الزَّاهِبُ الْفَيْلَسُوفُ الْيُونَانِي، وَمَعَهُ فَسِيسٌ وَأَسْقَفٌ، بِحِزْمَانِهِ مِنْ دِينِهِ، وَكَتَبَ لَهُ كِتَابًا أَعْظَمَ فِيهِ. وَكَتَبَ السُّلْطَانُ أَيْضًا إِلَى الْمَلِكِ بَرَكَةَ كِتَابًا وَسَيَّرَهُ إِلَى الْأَمِيرِ فَارِسِ الدِّينِ أَقُوشِ الْمُسْعُودِيِّ الْمُنَوَّجِهِ بِالْهَدِيَّةِ إِلَى الْمَلِكِ بَرَكَةَ. فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْأَشْكَرِيِّ أَطْلَقَهُمْ لِقُوتِهِ، فَسَارُوا إِلَى الْمَلِكِ بَرَكَةَ" (المقريزي، 1997م).

وَشَهِدَتِ سَنَةُ (662هـ/ 1263م) قُدُومَ رُسُلِ بَرَكَةَ خَانَ إِلَى الْمَلِكِ الظَّاهِرِ، "وَمَعَهُمُ الْأَشْرَفُ ابْنُ الشَّهَابِ غَازِي بْنِ الْعَادِلِ، وَمَعَهُمْ مِنَ الْكُتُبِ وَالْمُشَافَهَاتِ مَا فِيهِ سُرُورٌ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مِمَّا حَلَّ بِهَوْلَاكَو وَأَهْلِهِ" (ابن كثير، ح، 1988، ج13، ص256). فَاسْتَقْبَلَهُمُ السُّلْطَانُ أَحْسَنَ اسْتِقْبَالٍ، وَوَقَفُوا إِلَى جَانِبِهِ، "فَشَاهَدُوا

نحو العامل الديني، والعامل الاقتصادي، وعامل المصاهرة، والعامل الاجتماعي، والعامل السياسي. ومؤدى الكلام بعد ما سلف كله، أن الظاهر ببيرس أفاد جد الإفادة من الأحداث التي رافقت وصوله للحكم، وجعلته شديد الحرص على تدعيم سلطته على الأضعدة الداخلية والخارجية وضرب عدوهم المشترك.

السفارات التي تهتم بالدفاع عن مصالح دولتها وترعى شؤون مواطنيها، الداخلية منها والخارجية، بات بالإمكان وضمن العلاقات المتعددة التي سنهاها في هذا البحث بين دولة المماليك ومغول القفجاق - أن يعي المرء طبيعة تلك السفارات بين الدولتين، حيث كانت علاقة مودّة وتقارب وصدقة ومصالح مشتركة، وهي في جُلها مُنبثقة عن عوامل مُتعددة،

المصادر والمراجع

المصادر

ابن خلدون، ع. (2000). (ت808هـ/1405م)، تاريخ ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخير في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس: خليل شحادة، مراجعة: سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان.

ابن كثير، أ. (1988م). (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية، حقه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شبري، فهرسة: عبد الرحمن الشامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1.

الرمزي، م. م. (1908م)، من تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار وملوك التتار، المكتبة الكريمة والحسينية، ط1،

القلقشندي، ش. (1987). (ت821هـ/1418م)، صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، دار الكتب الخديوية، المطبعة الأميرية، القاهرة، . المقريزي، ت. (1997). (ت845هـ/1145م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1.

اليونيني، ق، د. ت. (ت726هـ/1323م)، تاريخ دمشق من القرن الرابع حتى القرن السابع الهجري - من القرن العاشر حتى القرن الرابع عشر الميلادي - من ذيل مرآة الزمان (الذيل المذيل على تاريخ دمشق لابن القلانسي: تكملة تاريخ دمشق لسبط ابن الجوزي واليونيني - من ذيل مرآة الزمان لليونيني).

المراجع الحديثة:

الأمين، ح. (1976)، دار التعارف للمطبوعات، بيروت - لبنان. بارتولد، (1982)، العالم الإسلامي في العصر المملوكي، ترجمة: خالد عيسى، دار حسان للنشر والتوزيع، دمشق. تحقيق: سهيل زكار، التكوين للنشر والتأليف، دمشق. جبران، ن. (2011)، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة

حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، إربد - الأردن.

حسن، ص. (2010)، تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان - الأردن، ط1.

الزبيدي، م. (2006). العصر المملوكي (648-923هـ/1258-1517م): موسوعة التاريخ الإسلامي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان - الأردن.

سرور، ج. (1960). دولة الظاهر ببيرس وحضارة مصر في عصره، القاهرة.

عاشور، ف. د. ت.، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، مصر.

موير، و. (2007). تاريخ دولة المماليك في مصر: صفحات من تاريخ مصر (25)، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 1415هـ/1995م.

المجلات العلمية

الحجي، ح. (1981)، العلاقات بين دولة المماليك ودولة مغول القفجاق في الفترة ما بين (658-741هـ/1260-1341م)، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية، الرسالة الثامنة في التاريخ.

ضاحي، ف. (2007م)، الزواج السياسي في عصر المماليك البحرية (648-784هـ)، مجلة كلية التربية، جامعة واسط - العراق، العدد (2).

المراجع الأجنبية

Boyle, J. (1966). *The Mongol Word Empire*, (1266- 1370) Variorum, Reprints, London.

Irwin, R. (1986). *The Middle East in the Middle Ages*, The Early Mamluk sultan 1250- 1382 Groom Helm, London.

Morgan, D. (1988). *Medieval Parsia*, (1040-1696) London.

Setton, k. (1969). *A history of the Crusades*, 2nd, Ed, University of Wisconsin, Madison: 3.

The Embassies Exchanges between The Sultan AL- Dahir Baibars (658- 676H/ 1265- 1277A.D.) and The Alqufjak Mongols (Golden Horde)

*Fayzeh M. Al-Hijazi**

ABSTRACT

This research addresses the subject of embassies exchanges between the sultan AL- Dahir Baibars (658- 676H/ 1265- 1277A.D.) and the Alqufjak Mongols. These relations have been established based on religious reasons because The Qufjak Khanas embraced Islamic, which lead to the establishmant of friendly and loving relations among them and the Mamluk Kingdom. Both parties have supported such relationships and exchanged ambassadorships loaded with gifts.

There were also political reasons for this closeness as the muted enmity towards the Persian Mongols shared by both the Mamluk and Qufjak Mongols. These reasons led to an agreement to stand against the Persian Mongols with the purpose of defeating them. This is especially so, knowing that the Khanas of the Persian Mongols were not Muslims.

Keywords: Embassies Exchanges, AL- Dahir Babars, The Alqufjak Mongols, Golden Horde.

* Deptment of History, Faculty of Arts, Yarmouk University, Jordan. Received on 14/02/2016 and Accepted for Publication on 21/05/2016.